حرّ... وأخيرًا

صموئيل د. كون

المحتويات

١. الفِراق	٧
٢. البيت الجديد	١١
٣. الهروب	١٥
٤. اللقاء والفراق	١٩
٥. مذنب بالتُّهَم الموجَّهة إليّ	٢٧
٦. حرٌّ للحب	٣١
٧. وداعًا يا تشارلز	٣٥
٨. السجن من جديد	٤١
٩. حريّة جديدة؟	٤٥
١٠. جرحٌ واحدٌ لا غير	٥١
١١. العدُّ التنازلي لتلقّي رسالة	٥٧
١٢. لا أب إلّا الله	٦١
١٣. طريق السلام	٦٧
١٤. كيرني بحاجة إلى المساعدة!	٧١
١٥. يا أبي، أنا عائدٌ إلى المنزل	٧٧
رسالة المؤلِّف	٨١

الفصل
١

الفِراق

رفع تشارلز البالغ من العمر عامين نظرَه عن لعبة المكعّبات المركّبة ليجد أنَّ والدته قد ذهبت. أسقط كتلة المكعّبات التي بناها وترنّح متوجّهًا نحو الباب، وراح يصرخ: "ماما! ماما!" ورآها وهي تعبر من أمام النافذة. فرمقته بعينيها الزرقاوين المعذَّبتين للحظة وقبّلته من بعيد، ثم قالت: "سأعود قريبًا يا تشارلي." تطاير شعرها الأشقر في مهبِّ الريح بينما أسرعت في المشي على الرصيف، وأخيرًا اختفت.

راح تشارلز يضرب النافذة بقبضتيه الصغيرتين، وبعد هنيهة، ألقى بنفسه على الأرض منفجرًا في نوبةٍ من الغضب، وأخذ يضرب على الأرض ويركل ويصرخ.

ثم توقّفت قليلاً عاملةٌ صادف مرورها من هناك وسألته: "هل تفتقد والدتك يا صغير؟ أظنُّ أنَّك ستتعلَّم في سنٍّ صغيرة ما هي حقيقة الحياة. لكنك ستتخطّى الأمر، فالجميع يتخطّونه." ثم تابعت الشابة سيرها وهي تدندن نغمةً سمعَتها للتو في الراديو.

في تلك الليلة لم يبكِ تشارلز بكاءً شديدًا لعلّ النوم يغلبه، بل ظلَّ مستيقظًا لساعات ومتوترًا يحدِّق في السقف محاولاً أن يفهم الحياة. لقد فشل في ذلك، واستغرق في النوم، وراح يرى مرارًا وتكرارًا امرأةً شعرها أشقر وعيناها زرقاوان معذَّبتان. وشرع في البكاء مناديًا "ماما، ماما"، وركض خلفها في أحلامه. لكنّ ساقَيه القصيرتَين والمكتنزتَين لم تتمكّنا من دفعه بسرعة كافية للّحاق بها. فقد انعطفت أمّه عند الزاوية، وعندما وصل تشارلز إلى الزاوية وحدّق نحوها، لم يرَ سوى فراغ أسود.

وعلى مرِّ السنوات المتعاقبة، راود تشارلز هذا الحلمُ مرارًا وتكرارًا، وحاول أن يحتفظ بصورة والدته في مخيّلته الصغيرة لكنَّها تلاشت، فنسيها.

كانت تدور في ذهنه أمورٌ أخرى؛ فقد مرّت السنوات، وحملت معها سلسلة من دور التبنّي. في الفترة الأولى، عندما كانت تأتي امرأة لإحضاره من دار التبنّي، كان ينظر إليها بأمل إذ يظنّ في نفسه أنّها ستكون أمّه الجديدة. كانت تتفوّه المرأة بكلامٍ لطيف، وكان تشارلز يمسك بيدها ويلتصق بها ويخرجان من باب دار حضانة الأطفال. لكن مرة بعد مرة، صُدِم تشارلز إذ كانت المرأة تتغيّر فور ركوبها السيارة، فتغضب وتصرخ في وجهه.

في البداية، حيَّر هذا التغييرُ الصبيّ الصغير، وكان يتساءل عن الخطأ الذي ارتكبه ويحاول أن يكون لطيفًا قدر الإمكان حتى لا يزعج هؤلاء الناس. لكن سرعان ما كانوا يعيدونه بعد قضاء وقت بائس إلى دار الأطفال في مقاطعة ألين.

كانوا يشتكون من بكائه وصراخه طول الليل لدرجة أنّه كان يوقظ الجميع، ومن عدم قدرته على استخدام قعّادة الأطفال كما يجب.

مع مرور السنين وتكرار النمط عينه بدأ عقل تشارلز الصغير يدرك أنَّ هؤلاء الناس أخذوه لأنَّهم أرادوا شيئًا منه. كان أصغر من أن يُدرك كميّة الأموال التي حصلوا عليها من الدولة مقابل أخذه. لكن مع تقدُّمه في السن، وعندما كان في الثامنة من عمره اكتشف شيئًا آخر يريده الناس.